المنشآت الصحيّة بالمغرب عبر التاريخ

بمناسبة السنة الدولية للمعاقين

د. عبد الهادي التازي

كلنا يعرف عن التنافس القوي الذي امتد بين الخلافة العباسية في بغداد والخلافة المُوَحّدية في المغرب ، في اعقاب سحب الموحدين اعترافهم بسيادة العباسيين ، والغاء ذكرهم من اعلى منابر المغرب ومن المملكة المغربيـــة .

ولقد تجلّت مظاهر ذلك التنافس في شتى الميادين ، واتخذت لها مواقف صراع تختفي آثاره لتظهر مرة اخرى . وقد نقل التاريخ عددا من الاخبار تدلّ جميعها على أن الموحدين في المغرب كانوا يُعدّون العدّة لتَزَعُّم دولة اسلامية واحدة ، وان العباسيين في المشرق كانوا يرون في الموحدين خطرا على كيانهم . وقد كان من المعقول جدا بالنسبة للمغاربة ان يراقبوا مسيرة بغداد ، اذ كانوا يطمحون الى مستويات افضل وامثل .

ومن هنا وجدنا انه ، الى جانب اهتمام المغرب بما يظهر من مذاهب هنالك وبما ينسخ من مخطوطات ، كان يُعْنَى جيدا بكل مظاهر الحضارة التي تصل اصداؤها ، ويبذل غاية جهده ، ليس فقط لتزويد المملكة الخلافية بمثلها ، ولكن ليكون التفوق المجلّي فيها .

وبهذا كان المغرب بين الاستفادة من الغرب عن طريق الاندلس ومن الشرق عن طريق بغداد .

وبهذا نفسر ظهور المدارس المغربية مباشرة بعد المدرسة النظامية ، ونفسر ظهور الكراسي العلمية على اثر ما بلغ عن كراسي المعاهد

البغدادية ، ومن أجل ذلك أيضا سمعنا عن نصب الساعة المائية في مراكش وفاس بعد ظهور الساعة المائية بمدرسة المستنصرية . وفي اطار ذلك التنافس أيضا شاهدنا انشاء سلسلة البيمارستانات في عدد من قواعد المغرب ، وعلى رأسها مدينة مراكش .

(البيمارستان) كلمة فارسية مركبة من كلمتين : بيمار بمعنى المريض ، واستان التي تعني مكان ، دار . بالك استان : دار [illegible] ، أفغان استان دار الافغان . ترك استان أرض الترك الخ . . . فمعنى بيماراستان : دار المريض .

واذا كنا لا نتوفر على وصف مدقق لكل تلك المستشفيات فان من حسن حظنا ان نجد عبد الواحد المراكشي يقدّم مستشفى مراكش بهذه العبـــــارات :

« وبنى يعقوب المنصور في مدينة مراكش بيمارستان ما أظن ان في الدنيا مثله ؛ وذلك انــه تخير له ساحة فسيحـــة بأعدل موضع في البلد ؛ وأمر البنائين باتقانه على أحسن الوجوه ؛ فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخاريف المحكمـــة ما زاد على الاقتراح ؛ وأمـــر ان يغرس فيه مع ذلك جميع الاشجار ، والمشمومات والمأكولات ؛ واجرى فيـــه مياها كثيرة تدور على جميع البيوتات ، زيادة على أربع برك ، في وسطـ احداها رخام أبيض ؛ ثم أمر له مـــن الفرش النفيســة من أنواع الصوف والكتان والحرير والاديم وغيره بما يزيد علـــى الوصف ويأتي فـــوق النعت ؛ واجرى له ثلاثين دينارا في كل يوم برسم الطعام ، وما ينفـــق عليـــه خاصة ، خارجا عما جلب اليه مـــن الادوية ؛ وأقام فيه مـــن الصيادلة لعمـــل الاشربة والادهان والاكحال ؛ واعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهـــاز الصيف والشتاء . فاذا برىء المريض ، فان كان فقيرا امر لـــه عند خروجه

بمال يعيش به ريثما يستقل ، وان كان غنيا دفع اليه ماله وتركته وسببه ؛ ولم يقصره على الفقراء دون الاغنياء ، بل كل مريض بمراكش من غريب حمل اليه وعولج ، الى ان يستريح أو يموت . وكان المنصور في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخل (البيمارستان) يعود المرضى،ويسأل عن اهل بيته يقول : كيف حالكم ؟ كيف القومة عليكم ؟ الى غير ذلك من السؤال، ثم يخرج . ولم يزل مستمرا على هذا الى ان مات،رحمه الله » .

قصدت بايراد هذا النص كاملا لانه يُعْتَبَر وثيقة من اجمل الوثائق المغربية المعبرة عن قمة ما وصلت اليه العناية بالمصاب .

ثلاثون دينارا يوميا برسم الطعام — قسم للصيدلية لتحضير الاشربة والادهان والاكحال — ثياب ليل على حدة ونهار على حدة . . . في الشتاء والصيف . . . يستوي الغني والفقير في المعالجة ، الخليفة يتفقد المرضى بنفسه . . .

هل يمكن أن نقارن بين هذا المستشفى ومستشفى بغداد الذي تحدث عنه ابن جبير عندما زار العاصمة العباسية عام ٥٨٠ = ١١٨٤م أي في نفس السنة التي نصب فيها المنصور الموحدي ؟

لقد تحدث ابن جبير عن بيمارستان بغداد على انه قصر كبير يزود بماء دجلة ، وانه يحتوي على كل المرافق التي توجد في القصور الملكية .

انني على مثل اليقين أن هذا مظهر بارز من مظاهر التنافس الجاد والحاد بين بلاط بغداد وبلاط مراكش . . . ان المراكشي كان يزن كلامه وزنا عندما قال « انه لا يظن ان في الدنيا مثل مستشفى مراكش» ، مع العلم أن المراكشي يعرف المشرق والشرقيين ، وزار مصر واستقر بالعراق حيث ألف كتابه المعجب هناك .

فماذا كان عن الاحتياطات والاسعافات التي تقدم المريض ؟ أتصور المريض الذي يرتدي لباسا له في الليل غير اللباس الذي يكون له في النهار ، أتصور بجانبه (بيانات) تكشف عن تطور علاجه وماذا يتناوله اليوم وغدا . . .

ان الذين يحتاطون للمريض العادي مثل هذا الاحتياط يمكن ان نتصور عنايتهم بالآخرين الذين قدر لهم أن يصنفوا ضمن مرضى آخرين من نوع ثان .

« لنتصور أن أبا يعقوب يوسف ، والد المنصور السالف الذكر ، عندما داهم الوباء عاصمة الموحدين عام ٥٧١ = ١١٧٦ ، فرض نظاما رائعا ، ما كنا نتصوره لولا أن التاريخ اهتم به . . . « كان الرجل لا يخرج من منزله حتى يكتب اسمه ونسبه ومكانه على ورقة يجعلها في جيبه ، فان مات حمل الى أهلـه » .

اذا كان الاهتمام يصل بالنسبة للقادرين الى هذا الحد ، فكيف نتصور الاهتمام بالنسبة للذين لا يقدرون على التعبير ؟ للذين لا يستطيعون الاعتماد على أنفسهم ؟ للذين يتهددهم الضعف والعوز والخصاص ؟

لقد ورد في ترجمة الوليد بن عبد الملك ، الذي كان من رجاله موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد ، وردت هذه الافادة التي تلخص كل ما يمكن أن يقال عن العناية المثالية السامية بالمعاقين :

« جعل الوليد لكل أعمى قائدا يتقاضى نفقاته من بيت المال ، وخادما لكل مقعد خادما » .

وهكذا شاهدنا ان الدولـة بمجرد ما تشعر بوجود معاق في البلاد يكون عليهـا أن تقوم بمبادرتين علـى الاقل : الاولى تكايـف مساعد يكون الى جانب ذلـك المعاق ، والثانية : تخصيص مبلغ من المال لذلك المكلف حتى لا يشعر بأنه يتطوع فحسب ، ولكنـه موظف يتقاضى اجرة على ما يقوم به . . هذا طبعا الى العمل الثالث الـذي يتجلى في ضمان العيش ايضا لذلك المعاق متى كان في حاجة الى أن يعيش كسائر الناس !

هناك حديث شريف يقول : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »ونحن لا نقـف لا قليلا ولا طويلا أمام « البنيان » ، أي بنيان كان ، لنعرف تركيبه ومادته . . هل هو كله من آجُرٍّ من قياس واحد ، من طينة واحدة ، من طابع واحد . . ؟ أبدا ، ان فيه الحجرة الكبـيرة والصغيرة ، والصحيحة والمكسورة ، ومن ذلك كله يقوم البنيان .

وهذا البنيان مثل حي من امثلة المجتمع الذي يهتـم فيه القادرون بالقاصريـــن .

هذا تفسير صائب سمعته ذات مساء من درس الشاه جلالة الملك بنفسه في قناة الدروس الحسنية اواسط رمضان ١٣٨٢ ، اواسط دجنبر ١٩٦٧ .

المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضـه بعضا . . . ولا نزيد المرصوص لانه ليس بمنصوص .

وهكذا كنا نتصور ان مستشفيات المغرب وبيمارستانات المغـرب كانت مزودة ، ليس فقط بما يُحتاج اليه من علاج ودواء ، ولكن كذلك بما هو ضروري لسيرهامـن ممرضين ومساعدين وموظفين من شتى الأُطُر ، كان على رأسهم أمثال ابن طفيل ، وابن رشد ، وابن زهر الحفيد . هكذا كان بيمارستان مراكش . . .وهكذا كان كذلك اشباهه في المدن الاخرى .

وقد سلك بنو مرين في هذا الموضوع طريق اسلافهم الموحدين ، فاهتموا كذلك بالذين أعاقهم الزمان . . . ومن ثمت شاهدناهم يخصصون الاوقاف الضخمة ، سواء على صعيد الدولة او صعيد الشعب ، ليوفروا للكل الحياة الكريمة الآمنة في كل الميادين المغربية .

سوف لا اطيل هنا بذكر الامثلة الرقيقة الشفافة التي التفتت بنو مرين اليها . ولكني لا أغفل اهتمامهم بانشاء دور للمكفوفين من شأنها أن تحميهم وترعاهم ولا تضطرهم الى الوقوف على باب واحد .

ان الدولة التي كانت تهتم بعلاج المصابين من الطيور في عنان السماء، لا يمكن ان تترك وسيلة لعلاج الانسان المنكوب الذي يمشي على الارض !!

لقد عرفت المؤسسات الصحية في عهد بني مرين ترقيا وازدهارا تحدثت عنهما المدونات والسجلات، بالرغم من الظروف العصيبة التي مرت بها الدولة في أواخر ايامها . . . هنا دور لرعاية المسنين والمسنات والمُتِلّين والمُقِلّات . وقد اقتفى السعديون نهج بني مرين ، فشاهدنا بيمارستان عبد الله الغالب بالله في مراكش ، على نحو ما شاهدنا العلويين يقومون به من اعادة الحياة الى بعض المنشآت المهددة ، وحرصهم على ان ينشئوا من جانبهم اماكن للعلاج . . وصلت احيانا الى ضواحي المغرب ، وعلى نحو ما رأينا في زاوية سيدي علي بو غالب بفاس ، وسيدي بنعاشر بسلا . .

لقد كانت الدولة تجعل هذا الموضوع في صدر اهتماماتها ، وكانت تكل الاشراف عليه الى (المحتسب) الذي يتحرك ويتجول ويراقب ويتابع . . . ولأمر ما وجدنا أن محكمته كانت بجانب مستشفى سيدي فرج بفاس .

هناك ظاهرة ممتعة تدخل في اطار حياتنا اليومية . . كانت مما اهتم به التشريع وبخاصة في بلاد الغرب الاسلامي :

فحتى تعطي الدولة دليلا للقاصرين على انهم يتمتعون بكل ما يتمتع به القادرون ، اجازوا لهم أن يباشروا كـل انواع النشاط الاجتماعي . . مكتفين بلغة الاشارة التي نرى الامم الراقية تتبجح بأنها المبتكرة لها كوسيلة للترفيه عـن المصابين .

ان لغة الاشارة في المغرب كانت معتمدة في كتب الفقـه الاسلامي كقاعدة تبنى عليها الاحكام .

لقد عقد ابن عاصم ، وهو من رجال الفقه الاندلسيين ، فصلا خاصا بالتعامل مع الذين يفقدون سمعهم لسبب من الاسباب ، أو مع الذين لا ينطقون . . . ومع الذين لا ينظرون . . .وحتى مع من اضحى يفقد الثلاثة ، على نحو ما قرأناه في بداية هذا القرن عـن السيدة الاميركية الشهيرة هيلين كيلير ، التي كانت لا تسمع ولا تنطق ولا ترى ، ومع ذلك استطاعت ـــ بفضل العزيمة والعناية ـــ ان تنال ألقاباً اكاديمية عليا . . . وأن تؤلـف وتكتب .

ذلك الفصل الخاص بالتعامل مع المعاقين يحتاج وحده الى كتاب ، وهو ، أي ابن عاصم ـــ كما يفهم منه ـــ يدعو دعوة صارخة لفكرة تعلم الاشارات ، وعليها يعلّـق الاحكام .

فهو يقول : ان العقود بكل انواعها يمكن ان يباشرها اولئك حسب دلالات الاشارة ، وان بامكان الشهود أن يتلقوا الشهادة من اولئك على نحو مـا يتلقونها من السالمين . . . وان الامر بالتالي يعتمـد على أن يفهم المعاق وأن يُفهِـم غيره . . .

يقول في تلك الابيات الخفيفة :

ومن اصمّ ابكم ، العقود * جائزة ، ويشهد الشهود
بمقتضى اشارة قد افهمت * مقصوده ، ويرضاه اهله
وان يكن مع ذاك اعمى امتنعا * لفقده الافهام والفهم معا
وذو العمى يجوز الابتياع له * وبيعه وكل عقد اهله

نرى كيف أن الفقه الاسلامي يحتضن هؤلاء المعاقين ويجد صيغة للتعامل معهم على قدم المساواة .

وتعالوا بنا نستمع الى نوع آخر من العناية بالمصابين — والمؤمن مصاب — كما يقولون :

ان الطفل الخائف قد يتسبب له خوفه في ازمة ملازمة طيلة حياته . . فحتى يجنبه المجتمع ذلك الخوف وجدنا اوقافا واحباسا تؤدي بمقتضاها تعويضات للاطفال الذين كسروا أواني لاوليائهم ، واصبحوا يخافون من مواجهة العقاب والعتاب . . . فحتى يتمتع الطفل براحته ضمنت له الاوقاف هذه الفرحة .

ان (الحب كريم) كما يقولون ، لا يوجد له تعبير خاص ولا يحتاج الى تفسير خاص ، ولكنه الحب الذي يجب أن يهيمن على تصرفاتنا وسلوكنا ومبادرتنا مهما كان الامر .

اريد من كل هذا الكلام أن اخلص الى القول : انه اذا كانت الامم اليوم تقوم بمثل هذه المبادرات الجميلة ، فتخصص قسما من ميزانياتها للاهتمام بهذا النوع من الناس ، فان المغاربة بالامس جعلوا من حياتهم كلها فرصة للتعبير عن العناية والاهتمام . . ولا شك أن أبناء المغرب اليوم سيكونون في مستوى اريحية آبائهم بالامس . . !

د. عبد الهادي التازي